هُنَالِكَ الوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٣/١٠/٢٠٠٩م

من السور التي سنَّ لنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن نتلوها وأن نتدبّرها في يوم الجمعة سورة الكهف، وفي سورة الكهف لوحات متتالية تُقدّم لنا كل لوحة منها معنىً يحتاج إليه أهل الإيمان، وأحببت في هذا اليوم المبارك، يومِ الجمعة الأغرّ، أن أتدبّر مع حضراتكم نصًّا من نصوص هذه السورة المباركة.

هذا النص يُقدّم حوارًا بين المادية والإيمان، ويشرح لنا تقابلاً تقف فيه الأفكار المادية في مقابل الحقائق الإيمانية، ويُقدّم لنا ربّنا تبارك وتعالى هذا الحوار في صورةِ قصة كانت بين رجلين اثنين:

– أحدهما قد أُتخم ثراءً ومالاً وخَدَمًا وحَشَمًا وأعوانًا... لكنه مع كل هذه النِّعَم كان غافلاً عن المُنعِم، ومُتوهِّمًا أن هذا الذي مَلَكَه إنما أُعطِيَه بعِلمه وذكائه وعبقريته وتفوقه.

– ويقف أمام هذه الثري المُتخَم رجلٌ مؤمن فقير، لا يملك من هذا المتاع الذي ملكه ذلك الثري شيئًا، لكنه يحمل في قلبه إيمانًا بالمُنعِم الذي يملك الأرض والسماء، والذي بيده خزائن المُلك والملكوت.

وهي سورة نحتاج إليها وإلى مضموناتها، في زمنٍ نسمع فيه كلَّ يوم حوارًا صاخبًا وضجيجًا مرتفعًا بين المادية المُتعزّزة بقوتها، والإيمانِ الذي قلّ أنصاره وقلّت أدواته.

يقول ربّنا تبارك وتعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ} وهذا المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى إنما كان قصةً واقعية، لكنه سبحانه وتعالى أحضرها لتكون نموذجًا حاضرًا نُصب أعين الناس.

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً} والمُخاطَبُ سيدُنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله تبارك وتعالى مُعلِّمًا للإنسانية، وقال: (إِنَّمَا بُعِثْت مُعَلِّمًا).

قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا، وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً، لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا، وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ

فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا، هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} [الكهف: ٣٢-٤٤]

وإذا أردتم أن تتصوّروا تلك القصة فلابد من إحضار الصورة الهندسية التي نقلها القرآن الكريم لنا عن بيئة هذه القصة:

تصوّروا واحتين كبيرتين إلى درجةٍ يكون النهر الكبير جاريًا بينهما، ولم تكن تلك الواحتان تُسقَيان بالسواقي، وتصوّروا ما يكون حول نهرٍ يسير وعلى حافتيه واحتان كبيرتان، ولكَ أن تتصور مساحتهما، ويكفي لتصور ذلك أن تتصور جريانَ النهر وطولَه وتدفّقَ مائه، وعلى حافتي النهر تجد كلَّ ما يُزرع من الحبوب والبقول ومما يملأ الأرض خُضرة ويعطي بعد ذلك جَنْيًا وحصادًا...

وبعد هذا المشهد: النهر الذي يجري بين الواحتين الكبيرتين، والزرع الذي ينتشر، وصاحب الواحتين عبدٌ واحد من عباد الله ينظر إلى ماءٍ وخُضرة، وحول الزرع انتشرت الأعناب، وإذا عُصرت تلك الأعناب كانت شرابًا مُعجَّلاً ومُؤجَّلاً، حتى يبقى صاحب الواحتين في غاية الالتذاذ وغاية النشوة، فإذا تجاوزتَ مساحة الأعناب رأيت النخل الذي يحيط بالواحتين من كل أطرافها، يُقدّم الرُّطَب والتمر والعجوة، وقد ورد في الحديث: (**بَيْتٌ لا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ**).

إنها صورة يرسمها القرآن الكريم، ويُقدّم من خلالها درجةَ الثراء والإتقان، ومستوى الصنعة الهندسية، ويُقدّم اللوحة التي تروق للإنسان.

إنه تَعِبَ كثيرًا حتى أبدع هاتين الواحتين.

ولما كان المورِد الذي يمدّ ثروته نهرًا لذلك لم يتصور عقلُه أن تفنى هاتان الواحتان، ولماذا تفنيان؟ إنهما لا تحتاجان إلى غيث السماء، فنهر الأرض يجري ليسقي زرعه وأعنابه ونخيله.

وتصوّروا ما يكون فيه هذا الثري من الاكتفاء والثروة التي يجنيها من بيع ثمره وجَنْي حصاده!

وهكذا نبّه القرآن الكريم إلى كلمتين هما الأُكُل والثمر:

فالأُكُل: ما كان يُؤكل في هاتين الواحتين، حيث يأكله صاحب الواحتين وخدمه وحشمه وأعوانه وأنصاره وعماله وموظفوه... وكل هذا من الأُكُل.

ولكنه نبّه إلى **الثروة** بقوله سبحانه وتعالى: {**وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ**} وهذا يُوجّه إلى ملكية ثروة.

إذًا: نحن أمام صورة مرسومة: واحتان كبيرتان تُسقيان بنهر كبير، والزرع على ضفتي النهر، والأعناب محيطة بالزرع، والنخل من حول الأعناب، والأُكُل والاكتفاء الذاتي حاضر، والثمر الذي يُباع للناس، والجَنْيُ الذي منه تُجمع ثروة كبيرة لتدخل الأموال الذهبية والفضية إلى خزائن هذا الثري..

وهذه هي اللوحة الأولى.

وتعالوا بنا نقرأ الآيات السابقة بشيءٍ من التمعّن:

قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا} وهو الثري الذي نتحدّث عنه.

{جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا}

أي أن ذلك الجَنْيَ من الثمر أو الحصاد كان في حالةٍ زراعية ليس فيها من الأمراض أو العِلل شيء، فهي تعطي عطاء الأرض الخصبة التي لا يفوقها عطاء.

{وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا} وقِفوا عند قوله: {وَفَجَّرْنَا} لتفهموا من خلال اللفظة تدفُّقَ ذلك النهر، فلم يكن ساقيةً صغيرة تجري، ولا نُهيرًا، لكنه كان نهرًا كبيرًا تتدفّق فيه المياه إلى درجة يصفها القرآن بالانفجار.

{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} وهكذا ظهرت ملكيته، وسطعت بوارق ذهبه في خزائنه.

ويبدأ الحوار، وهو ينظر إلى ما أُوتي من النعمة، فتنتفخ أوداجه فخرًا وخيلاء وتعززًا بالمادة:

{فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا}

أين مالي من مالك؟ وأين خدمي وأعواني وأنصاري مما أنت فيه من الوحدة؟!

ورحم الله من قال:

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مـــالُ ... ومن لا عنده مالُ فعنه الناس قد مـــالوا

رأيت الناس منفضة إلى من عنده فضـــة ... ومن لا عنده فضة فعنه الناس منفضـــة

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهبُ ... ومن لا عنده ذهبُ فعنه الناس قد ذهبوا

{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} أي: وهو مُعتدٌّ بحوله وقوته وماله، قد نسي نعمة الله، ونسي المُنعِم الذي أعطاه وقَسَمَ له من هذا القَسم الماديّ ما شاء، والمُعتَدّ بحوله وقوته وماله وأعوانه مُستندٌ إلى غير الله، وواقعٌ في الشِّرك، لأن الموحِّد لا يشهد إلا عطاء المُنعِم سبحانه الذي يرعى خَلْقه، ولهذا قال:

{وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} لأنه سبحانه يقول: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]

وقاده هذا الاعتداد بماله ونفسه وما كان في قلبه من حال مادّيّ – فقد أعمت المادة قلبه – حتى لم يتصوّر فَناءها، وكيف يتصور العابد فناء معبوده؟! إنه عَبَد المادة، وكيف يتصوّر عابد هذا المعبود فناء معبوده؟!

فلذلك نظر إلى ما بين يديه من الإتقان والصنعة فقال:

{قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا}

فكيف تفنى وهي التي لا مثيل لها في الأرض؟

{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} فالساعة اضطراب، وهو يعيش مع التوازن، وهو يرى سنّة الله في كونه قد ظهرت في أبدع ميزان.

وأنت إذا رأيتَ ساعةً من الساعات التي صُنعت مسنناتها القديمة أحسن صناعة، وسارت وفق ميزان دقيق، وأذهلَك وبهرك ما فيها من الصنعة، فقد تقول: إن هذه الساعة لا تفنى.

وهكذا ساقه ما رآه من إتقان وتوازن في ميزان الكون الذي خلقه الله إلى انتفاء تصوّر الاضطراب.

فلماذا يتوقف هذا النظام وهو ما رأى خللاً في حياته في ميزان الكون؟

ثم قال: {وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي} إن كان الأمر كما تقول بأن هذا العالَم سيتخرّب ثم يأتي عالَم آخر..

{لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} أما تقول: إن الله هو الذي أكرمني بهاتين الجنتين؟

إذًا: فلو أنه صنع كونًا آخر وعالَمًا آخر فإنه سوف يكرمني كما أكرمني في هذه الدار.

وغاب عن فكر هذا الجاهل الأحمق أن هذه الدار ليست دار تشريف، إنما هي دار تكليف، فلو أن هذه الدار دار تشريف ما سقى كافرًا منها جرعة ماء، لكنها دار تكليف، فهي دار الاختبار والامتحان.

أما الآخرة فقد تكون دار التشريف أو دار التعنيف، وقد تكون دار الثواب أو العقاب، أما هذه الدار فإنها اختبار بالشكر أو الصبر، فإذا أعطاك النعمة اختبرك بشكرها، وإذا منعك ووضعك في المصيبة اختبرك بالصبر عليها، وهكذا هي الدنيا، اختبارٌ بين الشكر والصبر، والمُكلَّف بين هذين الأمرين لا محالة.

قال سبحانه في حق سليمان عليه الصلاة والسلام الذي أعطاه كل شيء، وأعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ٣٠].

وقال في حق أيوب الذي أُصيب بمرض لم يُصَب به أحد من الخَلق فصبر على المصيبة:

{نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ٤٤]

فكرر العبارة نفسها فيمن أدى الشكر ومن وقف في مقام الصبر.

فهذه هي الدنيا التي لم يفهمها هذا الأحمق الجاهل، والذي توهّم أن من أكرمه الله في الدنيا لابد سيكرمه في الآخرة، لأنه قاس الآخرة على الدنيا، وقاس الدنيا على الآخرة.

وكما قال سبحانه: {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} إنها حالة وهم.

{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}

{كَلاَّ} [الفجر: ١٥-١٧] فلا تقفوا مع هذه الوهم، إنما داركم دار اختبار وامتحان، ولا تعرفون الإكرام من الإهانة إلا إذا صار البصر حديدًا: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢].

وأنت في الدنيا لا تعرف: هل أنت من المُكرَمين أم لا؟

لكن إذا رأيت أنه رَضِيك أهلاً لطاعته فغلِّب الرجاء، لأنه ما أعطاك هذه الطاعة إلا ليُبشّرك بأنك من أهل القبول، وإذا رأيت أنه قد أحاطت المعاصي بك فغلِّب الخوف، لأنها عقوبة مُعجَّلة.

{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} وهاهنا يظهر منطق الإيمان.

{أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} أما تذكر أصلك الترابيّ الذي كنت فيه متساويًا مع الفقراء؟ أما تذكر يوم كنت نطفة تتساوى فيها مع الفقراء؟

أما تذكر أصلك الترابيّ وطور النطفة اللذَين كنت فيهما متساويًا مع الذين تتعزز وتتفاخر عليهم؟

أنسيت المُنعِم وتعزّزت بالنعمة؟

{لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي} يعني: لكن الله هو ربّي، أي: أما معبودي فإنه الله، فأنت تعبد المادة وأنا أعبد الله.

{وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} فلا أنسب نعمةً أو نقمة أو رَفعًا أو خفضًا... إلا إلى من بيده مقاليد كل شيء.

{وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ} ليتكَ كنتَ من أهل الإيمان فدخلتَ في النعمة التي أنعم الله تبارك وتعالى بها عليك فقلت: **"مَا شَاءَ اللَّهُ"**.

أي: هذه النعم هي مما شاء الله، فلا يبرز في ملك الله إلا ما تعلقَتْ به مشيئتُه وأبرزته قدرتُه.

{لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ} فكل ما اجتمع من المال والخدم والحشم والأعوان... فهو بقدرة الله.

وهو بهذه الآية أشار إلى وصفين من أوصافه، فأشار إلى إرادته النافذة، أي إلى مشيئته التي لا رادّ لها، وإلى قدرته التي بها يخلق كل شيء.

{وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ} فهذه مما قد شاء الله، {لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ} فكيف أتعزز بشيء لا يُنسب إليّ على الحقيقة، إنما هو عاريّة استخلفني الله فيها: (**كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسؤولٌ عن رعيَّتِهِ**).

{إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا}

وهكذا نبّهه إلى ما يُعرف عند أهل العِلم بالجائز في حقه تعالى، فهو سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقال له: إنه سبحانه لو أراد لحوّلني في هذه الدنيا إلى ثريّ وحوّلك إلى صعلوك صغير، فهذا جائز في حقه.

أما رأيتم من كان على عروش مُلكه ثم صار في المحابس والمشانق، فهذه الدنيا لا يدوم فيها حال، فكن مع محوِّل الأحوال، وإياك أن تقف مع الحال، وتوجّه إلى من بيده تحويل الأحوال.

يا من يـــرى مـــدّ البعـــوض جناحَهـــا ... في ظلمـــة الليـــل البـــهيم الأليليـــل

ويـــرى نيـــاط عروقهـــا في نحرهـــا ... والمـــخ في تلـــك العظـــام النحّـــل

أمـــنن علـــيّ بتوبـــة تمحـــو بهـــا ... مـــا كـــان مـــني في الزمـــان الأول

فقد تتحوّل الأحوال، ويتحوّل قساة القلوب إلى أولياء.

وهكذا ذُكر في كُتب التفسير أن موسى عليه الصلاة والسلام لما كان مُنفعِلاً لأمر الله سبحانه وتعالى ويريد أن يضرب بعصاه لتبتلع إفك السحرة، قال له جبريل: تَرَفَّقْ بأولياء الله، فعجب موسى: كيف ينصر السحرةُ فرعونَ ويقول جبريل: ترفّق بأولياء الله؟! فقال له جبريل: الآن هم في الدنيا وبعد العصر هم في الجنة.

{فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} فخاف أن ينقلب حاله كما انقلبت أحوالهم.

فقال له: {لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى} [طه:٦٧-٦٨] فهو رعاك في الدنيا ويرعاك في الآخرة.

ثم قال سبحانه: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} والقرآن لا يذكر لنا تفصيلات الإهلاك، لأن هذا مما لا يعني المُعتبِر هنا، فهل كان هلاكها بجفاف الماء أو بحسبانة، والحسبانة: الصاعقة؟

قال: {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} فإذا نـــزلت الصاعقة حوّلتها إلى أرض لا تقبل الزراعة بحال من الأحوال، ولا ينبت عليها زرع.

فهل كان الإهلاك بالجفاف أو بالصاعقة؟

فهذا مما لا يعني المُعتبِر في هذه القصة، إذ الاعتبار بالحوار، فالذي يقدر على هذا يقدر على ذاك، فلا تقف على جزئياتٍ لا تعنيك.

لذلك قال: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} فاختصَرَ القضية، لأنه يريد منا أن نعتبر بالمضمون، لا أن نقف مع جزئيات القصة الظاهرة، فقد هلكت الواحتان، ولا يعنينا كيف هلكتا.

{فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} وهي خالية ليس فيها زرع ولا فيها من الأعناب ولا من النخيل شيء.

{وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا}

يقول سبحانه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} وهذا ينبغي أن يكون حاضرًا في قلوبنا.

{لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]

فإذا أعطاك النعمة فشكرتها فسيزيدك، وإذا أعطاك النعمة فاستعملتها في معصيته أنـــزل العذاب بك:

{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة: ٢١]

ثم قال: {وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أين أعوانك؟ أين خَدَمُك؟ أين حَشَمك؟ أين مالُك؟ أين الذي كنت تتعزز به من دون الله...؟

{وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا} وما كان قادرًا على أن يستردّ شيئًا مما أهلكه الله.

{هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} فإذا أردت أن تفهم تولّي الله لعباده:

(احْفَظِ اللَّهَ يحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ).

فإذا تولاّك الله كن مطمئن القلب.

كن وليَّهُ يكُن وليَّك.

إنها معادلة ينبغي على أطفالنا أن يحفظوها، وينبغي على شبابنا أن يذكروها، وينبغي على كهولنا أن يسترجعوا في ذاكرتهم مضمونها.

فإذا أردت أن تفهم التولّي فاقرأ هذه القصة.

{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} هكذا قال سبحانه.

وقال: {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٦٨] فالله لا يتولى الكافرين، ولا يتولى أهل المادة.

وقال: {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ} [آل عمران: ١٩٦-١٩٧] متعة عاجلة زائلة.

{إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ} نـــزله حتى أقتدي به، {وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف: ١٩٦].

كن صاحب الاستقامة والصلاح تجد الله وليّك.

لا تنحرف في خلوتك، فجلوتك يراك الله فيها، وخلوتك يراك الله فيها، فلا تخن في خلوتك، واعلم أن الله يراك في السرّ كما يراك في العلانية.

{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ} [الأنعام: ١٤]

{وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا} [النساء: ٤٥]

{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ} فالبشارة في الدنيا لأوليائه، والبشارة في الآخرة لأوليائه، {لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٢-٦٤]

فكونوا أولياء الله، وتستطيعون أن تكونوا أولياء الله بهذين الوصفين: {الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} فكونوا أصحاب الإيمان بالغيب الذي أخبر الله تعالى به، وكونوا أصحاب التقوى بالترك لما نهى عنه.

ثم قال: {هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا} في الدنيا والآخرة.

{وَخَيْرٌ عُقْبًا} وخير عاقبة في الدنيا والآخرة.

إنها قصةٌ مُزلزِلة، قصةٌ تجعلك بين يدي الله ساجدًا، وتجعلك مُنطرِحًا في أعتابه، وتجعلك مُتذلِّلاً بين يديه ومُستسلِمًا، تُظهر عبديتك، وتتوب عن تعززك بالأشياء، وتتوب عن تعززك بالخَلق.

اللهم لا توجِّه قلوبنا إلا إليك، ولا تجعل اعتمادنا في الأمور كلها إلا عليك، وأَجِرنا من خِزي الدنيا وعذاب الآخرة، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.